كلمة هامة .. وأخيرة !

قصة بقلم الدكتور نعيم عطية

سيداتي ، سادتي ، ليست هذه اول محاضرة تحضرونها ، وليس هذا أول كلام تسمعونه . كثيرون قبلي قالوا لكم كلاما صفقتم له ، وهللتم طالبين المزيد . لماذا ؟ لانه كلام من النـــوع الذي يروق لكم ويخدركم . يجعلكم تنظرون الى بعضكم بعضا وتقولون : يا سلام ، نحن حقا أذكياء . نحن حقا نعرف اشياء كثيرة . نحن مركز الكون حقا ، وكل شيء في الدنيا لنا .. واني وان كنت واحدا من الذين قالوا لكم كلامـا من هذا القبيل ، لكن اليوم اصفوا اليّ جيدا . من له اذنان فليسمع ، ومن له قلب فليسمع ، ومن ليس له اذنان او قلب فليجتهد على أي حال ان يسمع .. اني لم آت لاسليكم . سوف اقول لكم كلاما كان يجب ان تسمعوه من زمن بعيد . نحن أليوم في عصر الصواريخ ، ولهذا يجب ان نتكلم كلاما علميا . كل كلام مدعم بـــدليله . وها هي الكتب ، والقواميس ، والمراجع ، كلها ملأى بالبراهـــين والادلة . كلامي الليلة سوف يغير حياتكم . سوف يضع نهايـة لكل شيء . لا بد ان تدفن البذرة كي تطلع الشجـرة . وأنا الليلة سأكلمكم عـن شيء ابعد من الحياة والموت ، عن شيء ابعد من الخير والشر . سأكلمكم عن « السر » عن « السر الاكبر » ، سآخذكم في جولة الى حديقـة الصخور . ومن تمزق جلده أو اصيب بجراح فليتحمل . ان تكـــون بطلا وتقيا هو منتهى الكمال الانساني . على كل حال لا تخـــافوا .. أتفهمون ؟

تعالوا نتكلم في هدوء ، بغير انفعال ولا زعيق ، مثل الاصحاب ، مثل الاحباب ، مثل الازواج في أول حياتهم الزوجية .. ما الذي جاء بكم هنا ؟ كيف جئتم هنا ؟ لماذا لم نجلسوا في المقهى ؟ لماذا لم تجلسوا امام التليفزيون ؟ لماذا لم تنعموا بالدفء في فراشكم الليـــلة ؟ جئتم تنظرون اليّ ، وانظر اليكم ؟ تحملقون واحملق فيكم ؟ لكن انا لا اراكم. لم آحضر من اجلكم . جئت من اجل اداء واجب . انا رجل محاضرات.. طوال عمري ألقي محاضرات .. عـــلى اناس لا يفهمونني .. وكيف يفهمونني ؟ لكن الكلمة شرف ، الكلمـــة واجب . وانا أؤدي واجبي . سعيد انا ام غير سعيد ، هذا امر آخر . ما من احد منا سعيد وراض. عندما تحس انك زائد عن الحاجة .. ملقى بك على الكومة ، ليس لـك مكان على الحصير ، ولا للقمتك موضع في الطبق ، ولا لرجلك محـــل على سلم الاوتوبيس .. ماذا تكون ؟

هذه هي الحقيقة ، تتأكد لي وانا انظر في عيونكم . كان الافضل الا تولدوا ، لكن البطن التي تسع واحدا تسع ستة وسبعة واكثـــر . والنتيجة أنتم ترونها : الزحمة !.. ومع الزحمة يضيع المعنى . ومـع ذلك كلكم جئتم . ما من احد يسمع . ومن يسمع يتظاهر بانه لا يسمع. هذه هي المشكلة ، ايها السادة . هذه هي المشكلة . اسمعوني ، مـن فضلكم . افهموني وصدقوني ، من فضلكم ! غير معقول ان تكونـــوا منصتين لي . طالما ان كلا منكم جالس على كرسي . ما الذي سيجعلكم تصدقونني ؟ لو كنتم على الباب تريدون ان تدخلوا ولا تقدرون كنتـم أظهرتم استعدادا للاستماع ، وسوف كنتم تقولون من الخارج « نحـن نصدقك ، يا استاذ . نريد ان نفهم . نود ان نصدقك » . لكن ما دمتم جالسين على كراسيكم تقزقزون اللب وتأكلـون الفول السوداني ، فـلا فائدة . ولماذا تريدون ان تفهموا ؟

باختصار ، ايها السادة . اني أسمع كلا منكم يقول في سريرته : « يا فرحتي ، لا زلت سليما معافى . لا زلت اسبح في بركة الطين ، في بركتي . بالنهار ، يحجل الغراب في الارض الخراب ، امامي ، يا فرحتي ، لا زلت احيا في بركتي . وبالليـل يغني الضفدع للقمـر وراء الغمام ، وانا في بركتي لا زلت اغوص . اغوص حتى رقبتـــي ، يا فرحتي ! » .. اني اسمعكم كما اسمع نفسي . ولا داعي للانكار .. أجل ، أجل ، فالليل اسود والنور عذاب يوجع العيون . حـــذار ان يوقد احدكم شمعة ، فالقبر كله ظلام ، ولو ظهر طيف منير ، سيقولون انه عفريت . سيقولون عنه اتهام ، وهل يحتمل احدكم مسمارا يـدق في كفه ، او حربة تغرس في جنبه ؟ هل يقوى احدكم ان يشم لحمـه محترقـــا ؟

لكن ، استيقظوا ، أفيقوا . الالم شيء فظيـــع ، يا اخواني ، هذا صحيح ، لكن نار جهنم متقدة . استيقظوا ، استيقظوا ، سرقتكم السكين ، دققوا النظر من حولكم ، انظروا ما هو مقبل عليكم مـــن ورائكم ، من امامكم ، من داخلكم . انهضوا . لا تحدقوا اليّ بعيونكـم الفارغة ، بعيونكم السرحانة . ماذا تنتظرون مني ؟ ليس لـدي ّ ما اقوله، ليس عندي ما اعطيه لكم . احمدك ، يا رب ، اخفيت كل شيء عـن الحكماء والفهماء ، واعلنتها للعبد لله .

مجيئكم الليلة كان غلطـــة كبرى ، لسبب بسيط . ان الغلط مكتوب عليكم . لماذا ؟ انا نفسي لا اعرف ، لكن دعونا نفكر معـــا . وجودكم تافه مبتذل ، خال من القلق ، رغم انكم على الدوام مهمومون ومنشغلون . طائشون ، وكل حقيقة مشوشة في ادمغتكم . كل واحد منكم موظف او عامل او تاجر ، ولكن ليس فيكم من هو انسان متميز . أتسمعون ؟ تحبون الثرثرة ، وتدسون انوفكم في كل شيء . تريـدون ان تذوقوا كل أكلة ، وان تدخنوا كل سيجارة ، وان تشاهـدوا كل رواية ، وان تضعوا اصابعكم عـــلى كل جرح .. تسالي ، تسالي . حد واخد منها حاجة ؟ يا سلام ، كل شيء في الدنيا طاهر وفي الوقت ذاته غارق في الدنس والخطيئة ! أتسمعون ؟ حياتكم الخاوية ، تملأونها فحسب . تقلدون فلانا وفلانة .. ماذا تلبس رندة بنت الحاجة زبيدة؟

آخر موضة . انظروا كيف عقصت شعرها ؟ كيف زججت حواجبها ، وخضبت اظافرها بالطلاء ؟ وانت ، يا استاذ ، تقول : انظروا كيف نال مرزوق ترقية تلو ترقية ، وصعد السلم قفزا وعدوا ؟ يجب ان افعل مثله . سأتزوج ابنة جودة بك ، وأصير باشمديرا . أتصدى للتوافه . لماذا هو قد وصل واصبح شهبندرا ؟ كل منكم لا يريد ان يكون نفسه فحسب ، بل يريد وفي غمضة عين ان يغدو نجما . اما الزهد والكرامة والتفكير الهادىء الحلال فهذه كلها امور اصبحت امورا صغارا . اني اعرف . انتم لا تسمعونني . كلامي لا يعجبكم .

سيداتي ، سادتي ، لانني لست مغنيا مشهورا ولا مقدما للبرامج في التليفزيون ، كونوا شجعانا ولو مرة . وحذاري ان تصفقوا . انتبهوا . لا تتراجعوا . ليس بلازم ان ينفعكم كلامي ويصلحكم . ما من شيء يفيد وينفع . كل واحد يحمل جثة ويمشي الى الوراء . يتقدم ، ولكن ليس الى الامام . لا تسبحوا ضد التيار . اني اعرف سواعدكم ، كم هي ضعيفة ومتعبة . اني اعرف كل شيء .

ها انتم تنظرون الى ساعاتكم ، وتسألون كم بقي من الوقت . اني حكيم مثل الثعابين . كلا ، لست منكم ، وان لم اكن افضل منكم. ومن اجل هذا كان قلبي معكم . اعرف ليس مكانكم هنا ، وما جئتم لتسمعوا . بل جئتم لتجلسوا على كراسي ، وتمنعوا غيركم من شغلها ، وربما كانوا أحق منكم . انتم تريدون ان تكونوا موجودين فحسب ، ان تكونوا في الصورة فحسب . ومن يدري ، فقد تتكلم الجرائد عنكم غدا ، وقد تكون الكاميرات معصوبة عدساتها السحرية عليكم الآن ؟ ما من احد مكانه هنا . كل معزول عن الآخر . الى جواره وليس الى جواره ، يسمعه ولا يسمعه ، حتى انا ليس لي شأن بكم . كان عندي سيء كبير جئت اقوله لكم . منذ اللحظة التي نظرت فيها الى عيونكم فهمت انكم لا تريدون ان تسمعوا ، غير قادرين انتم ان تسمعوا الا اصواتكم ، مثل الذي يغني في الحمام . غير قادرين انتم ان تروا الا انفسكم . تريدون ان تلعبوا وماذا تلعبون ؟ لعبة المراية ، لعبة الاستغماية ، هذه هي اللعبة ، لعبة كل يوم .

ثمة شيء يطاردني . يجري ورائي ، يضيق عليّ الحصار ، يكتم انفاسي ايها الناس ، ابعدوه عني ، سوف يخنقني . منذ ان ماتت زوجتي ، وانا احيا وحدي . لم اذق من بعدها لقمة طرية . اما ابنتي فهي ـ بيني وبينكم ـ من الخنافس .. اطالت شعرها الى ركبتيها ، وطوال النهار ترتدي بنطلونا ، وتقرأ كيركجور وافلاطون ، وتسمع اسطوانات . ولا تغسل وجهها . ادخل فأجدها شاردة الذهن ، دموعها منهمرة على خديها كما لو كانت قد قشرت جوالا من البصل . تقول لي « ما من شيء يجطني ابكي ، يا بابا ، قدر الفلسفة » . انها بالحق فائرة وفي سن الزواج . ألا تعرفون احدا يريد ان يطلع من دينه ، أقصد يكمل نصف دينه ؟ جزاكم الله خير جزاء . عنواني في دليل التليفون . ليس تحت حرف الدال . الناس تناديني « يا دكتور » ، هذا صحيح ، لكنني لست دكتورا . ومن يجد العريس ، أي عريس ، له عندي الحلاوة ، اجل الحلاوة ، سموها كما تشاءون لكن الحلاوة هذه هي التي تسير اليوم كل الاشغال . ذلك انني وان كنت رجل محاضرات ، وطوال النهار ألقي المحاضرات ، الا انني عملي ، ايها السادة ، عملي جدا . اعرف كيف انجز الاشغال . اتسمعون ؟

ولنرجع لموضوعنا . قبل ان اجيء اليكم احسست كأنني على باب كشف جديد ، كأن النور الذي أرى به الدنيا وكل الناس قد تغير. لا اخفي عليكم ، قلقت . لكن ـ صدقوني ـ لم اجد بي الرغبة في الهرب . لاول مرة وجدت كل شيء يمكن ان يكون له معنى . لكن كل شيء ما ليث ان تبخر عندما رأيت عيونكم الزجاجية ، عندما رأيت وجوهكم الملونة التي تضعونها على وجوهكم . لا بأس . لست ناقما عليكم . اننا لم نكن احرارا عندما ولدنا . هل كان بامكان احد منكم ان يكون وردة او غزالا ؟ ومن اللحظة التي نوجد فيها لا مفر لنا من القناع والقفاز والحوائط نحتمي بها . ذات مرة قشرت برتقالة ، وجدت بداخلها دودة . صرخ ضميري وقال لي « أترى ؟ نحن وجود للفناء » . قلت لنفسي « يا بروفسور نحن نستمر في الحياة سواء فكرنا ام لم نفكر ، سواء أطلنا التفكير او ابطلناه . والدودة في قلب الانسان ، في اعمق الاعماق فلا تبين » . اني اتكلم بالطبع عن الناس الصادقين مع انفسهم . اغمضت عيني ، قفز امامي في الظلمة وجهها النحيل .. الحب من النظرة الاولى .. الشفتان الغليظتان والاذنان المفلطحتان . رحم الله أمي ، كانت تقول اذا أردت الزواج تزوج امرأة مثل الحائط كي تتحمل خدمتك . الصوت مثل رنين العود ، اليدان النحيفتان المستهيتان بأصابع مثل المخالب . وأخيرا السيقان .. آه نسيت ، انا أعشق صوابع القدمين ايضا . هذه امرأة حبي الثاني والاخير . مومياء ، لكن لو كنتم قد رأيتم ابنتي ، وهي ترقدي البنطلون ، ستدركون ان مومياءات الزمن الغابر اجمل بكثير من بنات اليوم ..

بعد ان ابتدأت ايها السادة ، وقد قررت ان افتح صفحة جديدة تكون الصفحة الاخيرة في كتاب الاكاذيب ، اصبح املي الوحيد وانا أكلمكم الليلة ألا تسمعوني ، حتى لا تعرفوا انفسكم على حقيقتها ، فتقولوا عني « محاضر فاشل » ، وانا لا اريد احدا يقول عني هذا ، فانا طوال عمري اقول محاضرات ، وأتمنى من المحاضرات ، ولا أحد يقطع عيشه بيده . اني أشكركم على حسن استقبالكم ، وعدم فهمكم ، وهو اقصى ما يتمناه محاضر نزيه مخلص لمهنته ومستمعيه . تصوروا مادا سوف كان يحدث لو كنتم وعيتم كلامي في أوله ، لو كنتم فتحتم قلوبكم مثلما تحدقون فيّ هكذا . آه ، كانت الدنيا ستتغير ، والحياة تدب فيكم من جديد . لكن قانون التقادم الطويل اقوى من كل قانون ، وهو يسيطر عليكم ، الرحمة على امرىء قال « دع الامور تجري في أعنتها . والعنته تائمة لعنة الله على من ايقظها » عيونكم ، نظراتكم الشاردة ، تريد هدا . وشفاهكم المزمومة ستجدي وتقول « اتركونا في حالنا . اتركنا في سباتنا . لا توقظ ضمائرنا من مرقدها . فما قد مات مات .وما هيل عليه التراب لا تقربه . لا تنبشه ((نبش الغراب لكومة من الروث))لقد جئت لالقي سيفا لا سلاما ، جئت لانغض ، لافرق الابن عن ابيه ، والبنت عن أمها ، والكنة عن حماتها . هكذا جئت في اول الليل ، فارسا شجاعا تداعبه احلام نبيلة لانقاذ البشرية. لكن جلستكم المسترخية ، وجوهكم المطمئنة ، انفاسكم الرتيبة ، فغازاتكم المصقولة ، على الاخص فغازاتكم هذه ـ كل هذا جعلني اغير ما كنت اريد ان اقوله لكم . ربما ، ليس شفقة بكم ، بل كي أوفر على نفسي وجع الدماغ . ان قلة اولئك الذين يتمنون الموت يثبت ان الحياة ليست سيئة الى هذا الحد . واني اريد ان اعيش مثلكم ، كي القي المحاضرات ، محاضرات كثيرة ، وتصفق لي الناس ، وتقول « هائل يا استاذ ! هائل ! » فما اشهى النجاح السريع لمن ذاق طعمه ، ومن دوى التصفيق له مرة صمت اذناه فلا يعود يسمع غير صداه .

ختاما ، انا اشكركم ، فلو كنتم قد صحوتم على كلامي الاول ، كانت ستحدث امور كثيرة ، مضاعفات خطيرة ، تبينت اني لست اهلا لها ، ولا انتم ايضا ، غاليليو نفسه تخلى عن الحقيقة بكل بساطة عندما هددت حياته . وأوصيكم ألا تنسوا حكاية العريس ، أي عريس لبنتي ، ضعوه في بالكم ، وانا غير ناس للحلاوة ، وعلى استعداد ان ادفع مهرا كي افرغ لخطيبتي الصغيرة . بارك الله في اولادكم وذريتكم الصالحة . لا حرمنا الله من أفضالكم ، واسمحوا لي ان اقول لكم الى اللقاء في محاضرة قادمة ، والجايات كثير . ولا مفر من ان تجيئوا كي احاضركم . لا جدوى . سنتقابل في محاضرات كثيرة . فلا بد ان نكلم ونتكلم كي لا نسمع انفسنا ، اين المفر لكم مني ؟ كل شعرة في رؤوسكم معدودة ومحسوبة ، ومقدر على الاحياء ان يتلاقوا .. وهذه الدنيا الصغيرة العريضة ملمومة ولا آخر لها ، طالما ان فيها من هم مثلي . وممن هم مثلكم كثيرين .

القاهرة — نعيم عطية